الفصل السادس

تأملات فى الإيمان والإلحاد

يخلط كثير من الناس بين التوحيد وإثبات وجود الله ، وهما أمران بان - فى وضوح - اختلافهما واختلاف موقف الإسلام منهما ، إذ إن الإسلام استفاض استفاضة كثيرة فى إثبات التوحيد ، وذلك لأنه حق لا مرية فيه ، ويقين لا شك فيه ، وقد عمى عنه الوسط الذى كان بجزيرة العرب فأشركوا بالله .

أما موقف الإسلام بالنسبة لإثبات وجود الله فإنه مختلف اختلافاً كبيراً عن موقفه بالنسبة لإثبات التوحيد .

إن القرآن لم يتحدث عن إثبات وجود الله : إن الله فى العُرف الإسلامى وفى أعراف أصحاب الفِطَر السليمة موجود ، ووجوده لا يتمارى فيه اثنان ، ومع ذلك فإن الوضع الحالى فى جميع الأجواء الشرقية والغربية قد ألف نزعة ترى أن إثبات وجود الله مسألة تحتاج إلى برهان ، وهذا الإلف وهذه النزعة الناشئة عن التعوُّد فى حاجة ماسَّة إلى بيان الوضع الصحيح فى هذا الموضوع الخطير ، ومن أجل ذلك نرى من الواجب علينا معالجة هذا الموضوع فى شىء من الاستفاضة .

يقول الله سبحانه وتعالى عن جوهر رسالة نوح -عليه السلام- فى العقيدة : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (١).

---

(١) سورة هود : ٢٥ ، ٢٦ .

ويقول سبحانه وتعالى عن جوهر رسالة صالح -عليه السلام- فى العقيدة :

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾(١) .

وعن جوهر رسالة شعيب- عليه السلام - فى العقيدة : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾(٢).

وهكذا فى رسالة جميع الأنبياء - عليهم السلام - إذ يقول الله تعالى فى تعميم مطلق: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٣) .

-إلام تشير هذه الآيات ؟

إنها لا تتحدث عن إثبات وجود الله ، وإنما تتحدث عن الشِّرك، أى : الاعتقاد فى آلهة كثيرة .

ولقد كانت الثورة ضد الشِّرك وتحطيم الأصنام من المهام الكبرى فى الرسالة الإسلامية حتى إن العالم الكبير أبا الريحان البيرونى حينما أخذ يبيِّن الطابع الأصيل لكل دين قال عن الإسلام: « إن الطابع الأصيل للإسلام إنما هو التوحيد » .

وإذا كان البيرونى حينما تحدَّث عن طابع كل دين إنما كان يتحدث عن طابع الأديان فى وضعها الراهن ، فإنه مما لا شك فيه أن الأديان - على الرغم مما ذكره البيرونى عن سماتها المختلفة - تشترك جميعها فى مبدأ التوحيد .

وكل نبى بشَّر بالتوحيد ، ولكن الإنسانية كانت تنحرف بالعقيدة بعد موت الرسول من التوحيد إلى الشِّرك ، والشِّرك إسراف خاطئ فى الإيمان .

وما كانت الإنسانية تنحرف قَطُّ من التوحيد إلى الإلحاد ، وما كان للإلحاد وجود قَطُّ فيما قبل الحضارة اليونانية القديمة .

ونشأ الإلحاد - انحرافاً فطريًّا ودينيًّا - مع الحضارة اليونانية القديمة ، نشأ يجاور الشِّرك ويجاور التوحيد .

---

(١) سورة هود : ٦١ .

(٢) سورة هود : ٨٤ .

(٣) سورة الأنبياء : ٢٥.

لقد كانت هذه الحضارة تشتمل - فى العقيدة - على ثلاثة تيارات:

* **الشِّرك** : وهو دين الدولة الشائع ، وتقاليدها الراسخة ، يتمثل فى فنها الذى يمثِّل الشِّرك فى قوة ، والذى أثار الإعجاب للإتقان الذى كان يتمثل فيه ، والذى ما زال يثير الإعجاب حتى الآن ، ويتمثل فى أدبها الذى يعكس صورة لعقيدتها ، وتاريخ اليونان الفكرى والأدبى ملىء بصور الشِّرك ، مفعم بالوثنية ، ولكن الشِّرك فى اليونان - كغيره من ألوان الشِّرك - أعطى للآلهة صورة غير كريمة ، بل لقد وصل بها أحياناً إلى صورة تنحطُّ عن صورة البشرية الآثمة .

- أرأيت الآلهة ترتشى وتظلم وتزنى ؟

لقد كانت هذه بعض صور الآلهة فى اليونان القديمة ، وهى صور أساغها الإلف والتكرار والعادة ، وشَبَّ عليها الأطفال والشبان فلم تثر انتباههم أو توقظهم .

وفى فترة من فترات هذه الحضارة - فترة القرن الخامس والرابع والثالث قبل الميلاد على الخصوص - نشأت مجموعة من العباقرة لا تكاد تحصى ، وكأن السماء فى هذه الفترة كانت تمطر عباقرة على تفاوت فيما بينهم فى الاتجاه وفى المكانة .

هؤلاء العباقرة أكثرهم استقر على رفض الشِّرك ، أى : رفض الدين الرسمى الشائع للدولة ، ولو قَدَّرَ الله لليونان إذ ذاك ديناً صادقاً لاستمسكوا به ، وما تردَّت الإنسانية فى الأخطاء الكثيرة التى نشأت عن الحضارة اليونانية فى عالمها الفكرى الذى انفصل عن الوحى لا عن اختيار ورغبة ، وإنما على أسف شديد لفقدان الوحى والرسالة الصادقة.

يدلنا على هذا الأسف ، وعلى التقدير الذى كان عندهم للوحى قصة يرويها التاريخ حدثت فى عهد سقراط ، وهى قصة عميقة فى مغزاها كل العمق :

جلس سقراط - أبو الفلسفة وأبو الفلاسفة - ومعه اثنان من كبار فلاسفة المدرسة الفيثاغورية المشهورة التى أسَّسها فيثاغورس الفيلسوف الصوفى الكبير.

جلس ثلاثتهم يبحثون فى جِدٍّ واهتمام موضوع مصير الروح بعد الموت :

- هل الموت هو الخطوة الأخيرة للإنسان ينتهى بعده روحاً وجسداً ، أم أنه انتقال من حال إلى حال والروح باقية ؟

- هل الإنسان خالد بجوهره وهو الروح ، أم أنه فانٍ جسماً وروحاً ؟

وأجهدهم البحث ، وانتهى بهم إلى عدة براهين تثبت خلود الروح ، وأنها لا تفنى بفناء الجسم .

وسكنوا يستريحون قليلاً ، ولكنهم فى فترة راحتهم أخذوا يتدبرون ما انتهوا إليه ، ثم قال أحدهم - نتيجة لتأمله -: « ولكن المسألة ما زالت فى حاجة إلى مزيد من اليقين» .

ولقد كان ذلك هو ما انتهى إليه الآخرون فى تأملهم ، وقال أحدهم معقِّباً على ذلك : « ولكن هذا نهاية شوط العقل » .

وأسفوا جميعاً على أنه لم ينزل وحى ، ولم يُبعث لديهم رسول يفصل فى هذا الموضوع .

ثم أخذ أحدهم يتحدث عن تشبيه دقيق يتعلق بوسيلة العبور فى محيط ما وراء الطبيعة ، والمحيط المادى إنما يتأتى فى أعراف الناس عن طريقين :

أحدهما : السفينة يعبر بها الإنسان المحيط آمناً مطمئناً من شاطئ إلى شاطئ .

أما الثانية : فإنها لوح من خشب ، مصير راكبه الغرق فى أغلب الظن .

ووسيلة عبور محيط ما وراء الطبيعة هى الوحى ، وهو السفينة الآمنة المتينة .

والعقل هو لوح الخشب الذى لا يصل فى أغلب الظن إلا إلى غرق راكبه .

ولقد كان فلاسفة اليونان فى لهفة على أن ينزل عليهم الوحى فى جِدَّته ونُضْرته وصِدْقه ، ولم يُقدَّر لهم ذلك ، ورفضوا الشِّرك : دينهم الرسمى ، فما هو البديل ؟ إنه لوح الخشب .

وركبوه : ركبه سقراط ، وركبه أفلاطون ، وركبه أرسطو ، وركبه -من قبل- السوفسطائيون ، وركبه - من بعد - أبيقور ، وركبه الرواقيون ..

- إلامَ وصل بهم ؟

*** لقد وصل بهم إلى التوحيد (فيما رأى سقراط وأفلاطون وأرسطو وكثير غيرهم)** وهذا هو التيار الثانى الذى كان فى اليونان فى عصرها القديم . بَيْدَ أن توحيد هؤلاء ليس هو التوحيد كما نزل على لسان الصادقين المعصومين صلوات الله عليهم وسلامه ، ولم يمثِّل توحيد المدرسة السقراطية فى جزئياته وفى تفاصيله التوحيد الصادق ، ولكنه على كل حال ليس شِرْكاً .

*** وأدى بهم - فى فريق آخر - إلى الإلحاد ، الإلحاد المطلق ، والإنكار لما بعد الطبيعة وللبعث والرسالة (وكان ذلك على لسان أبيقور ومَنْ لَفَّ لَفَّهُ فى اليونان من قبله أو فى زمنه ، أو من بعده)** .

لقد فقدوا - فى منطقهم الميتافيزيقى - الاعتماد على الوحى فقادهم ذلك إلى مسالك شتَّى ، ولو كان هناك وحى لقادهم وقاد عقولهم إلى الشاطئ فى أمن وسلام .

ومنذ هذه اللحظة دخل الإلحاد فى العالم مبتدئاً من اليونان .

وأصبحت مسألة التديُّن فى الجو الفكرى المتابع لهذا التيار اليونانى مسألة عقلية لا شأن لها بالوحى ، وأخذت تسير فى مجراها العقلى العادى :

- المؤمنون يبرهنون عقليًّا على إيمانهم .

- والملحدون يزيِّفون المنطق برهنةً على إلحادهم .

لقد أخذت المسألة هذا الطريق مع أنها شعور وفطرة وبداهة.

وما من شك فى أنه كان للمؤلِّهين منطق جميل فى الإثبات ، نذكر منه شيئاً من إثبات سقراط :

قال سقراط لصاحبه الذى ينكر وجود الله :

-أفى الناس من يعجبك براعته فى الصنائع ؟

فقال : نعم ، وسمَّى من الشعراء والمصوِّرين ممن كان يعدُّه أبرع من غيره .

فقال سقراط :

-أيهما عندك أرفع شأناً : من يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل أم من يصوِّر الأشباح الحية المتحركة ؟

فقال : من يصنع الصور الحية ، اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة ، لا من عمل العقل .

قال سقراط : إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها ، وأشياء أخرى بيِّنة القصد والمنفعة ، فما قولك فى تلك الأشياء ؟ وما هى التى عندك من فعل العقل؟ وما هى التى عندك من فعل المصادفة ؟..

قال : لا شك أن ما ظهر قصده ومنفعته من فعل العقل .

قال سقراط : أوَلستَ ترى أن صانع الإنسان فى أول نشأته جعل له آلات الحس لما فى تلك الآلات من المنفعة الظاهرة ؟ فأعطاه البصر والأذنين ليبصر ويسمع ما يكون لعيشه صالحاً ، وما فائدة الروائح لو لم تكن لنا الخياشيم ؟ وكيف ندرك المطاعم ونفرِّق بين الحلو والمر لو لم يكن لنا لسان نذوق به ؟

إن بصرنا مُعرَّض للآفات .. أوَلستَ ترى كيف اعتنت القدرة الإلهية بذلك فجعلت الأجفان كالأبواب ؛ لتمنع ما يصيب البصر ، وجعلت الأهداب كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح ؟

وما قولك فى آلة السمع ، وهى تقبل جميع الأصوات ولا تمتلئ أبداً ؟

أَمَا رأيت الحيوانات ، كيف رُتِّبت أسنانها المُقدَّمة ، وأُعِدَّت لقطع الأشياء فتلقيها إلى الأضراس فتدقَّها دقًّا ؟

فإذا تأملت فى ترتيب ذلك ، أيمكنك أن تشكَّ : هل هى من فعل العقل أم من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته ؟؟

قال أرسطو ديموس :

نعم ، إذا تفكَّرنا فى ذلك لا نشكُّ فى أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته .

* * *

ومهما يكن فى هذا الاستدلال من جمال ، ومهما يكن فى استدلال المؤلِّهين العقليين أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو وديكارت من قوة ، فإن المسألة مع ذلك انحراف مهَّدت له ظروف اليونان التى فُقد فيها الوحى ، وهذا الانحراف لم يجد من يصححه فأخذ صورة الوضع الطبيعى وهو انحراف منحرف .

- ما الوضع الطبيعى للمسألة ؟

قصَّ علىَّ صاحبٌ لى قصة هزَّت شعورى هزًّا قويًّا ، وأخذت أفكر فيها عدة أيام ..

وما كنت أتخيل أن يصل صدق الإيمان إلى هذه الدرجة .

قال صديقى - وهو سودانى - يحتل مكانة مرموقة فى العلم والإيمان :

إن فى أطراف السودان قرية صغيرة تشبه أن تكون منعزلة ، لا يكاد يطرق أبوابها غريب . ويسكن فى هذه القرية رجل صالح يسير فى حياته على تقوى من الله ، وعلى بصيرة من دينه .

عاش هذا الرجل وعالمه - كل عالمه - هو (هذه القرية) التى لم يفارقها قَطُّ . لقد تعوَّد فيها على (أناس معينين) . وعلى (ألوان محددة) و (ملابس) لا تكاد تختلف من فرد لآخر . إنه فى تصوُّره الحِسِّىِّ محدود بهذه القرية .

وفى يوم من الأيام اقتضت الظروف - فى صورة من الحتمية - أن يذهب إلى مدينة بعيدة . وكان هذا فى حياته حدثاً هائلاً ؛ فإنه لا يعرف الطرق ولا المسالك ولا كيف يسير . ولابد من السفر .. فاصطحب معه أحد أبناء القرية ممن لهم دراية بالأمور ، وسافرا ، وعلى مشارف المدينة رأى الرجل الصالح منظراً تعجَّب له .. رأى (ضابطاً إنجليزيًّا ! !) .

ورؤية ضابط إنجليزى فى السودان - إذ ذاك - كانت أمراً عاديًّا ..

ولكن - صاحبنا - لم يرَ هذه الصورة من قبل .

وسار تفكيره على النسق التالى :

- ما لهذا (الكائن) قد (حلق لحيته) على هذه الصورة حتى لكأنه قد «سنفرها» إلى أن أصبحت وكأنها لم تكن ؟!

وما له قد كتَّف نفسه فى ملابسه على هذه الصورة ثم ربط نفسه أيضاً بحزام فى الوسط ؟!

وما له .. وما له ؟؟!!

ثم سأل مرافقه : ما هذا ؟!

فقال مرافقه : هذا (خواجة) .

ولم تكن هذه الكلمة قد دخلت قاموسه اللغوى ..

فعاد يسأل : وما خواجة ؟

فقال صاحبه : (يعنى كافر) ..

وكان هذا مبلغ علم مرافقه ؛ فإذا بالرجل يرتجف قليلاً ويضطرب ، ويسأل فى اهتمام وقلق :

(أهو كافر بالله ؟ !!) ..

فقال رفيقه : (نعم ، كافر بالله) .

فإذا بالرجل الصالح يمتلئ جسمه وشعوره بالاشمئزاز من هذا الكافر ، فإذا بهذا (الاشمئزاز) يزداد شيئاً فشيئاً ، وفى سرعة سريعة وصل الاشمئزاز إلى غايته (فتقيَّأ) .

وكما يحدث الاشمئزاز من(القاذورات المادية) فإنه يحدث من (القاذورات المعنوية مثل الكفر بالله) .

والكافر باللَّه ـ فيما رأى صاحبنا ـ إنما هو مجموعة من (القاذورات المعنوية) لا تستحق إلا الاشمئزاز إلى درجة التقيُّؤ .

أما منطقه فى هذا الاشمئزاز فهو أن المُنكِر للجميل تشمئزُّ منه النفس، ويزداد هذا الاشمئزاز ويعظم كلما كان الجميل كبيراً وكان المُنكِر متبجِّحاً .

وإننا إذا نظرنا إلى ما بنا من نعمة فإننا نجدها من اللَّه :

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[1] .

وإذا نظرنا إلى كمية هذه النعم نجد أنها لا تُحصَى :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾[2] .

فمن أنكر هذه النعم وهى محيطة به ، ووصل به إنكاره للجميل إلى درجة الكفر ؛ فإنه يكون قد بلغ فى إنكار الجميل منتهاه ؛ فيبلغ الاشمئزاز منه منتهاه : «التقيُّؤ» .

وما كان صاحبنا يفكر فى منطق لشعوره ، وإذا كنا نحن نلتمس المنطق لهذا الشعور ؛ فإن هذه الظاهرة إنما تعبر أبلغ تعبير عن (صدق الإيمان) و(صفاء الفطرة) .

لقد فوجئت حقًّا بهذه الدرجة من صدق الإيمان .

وأخذت أربطها بما سبق أن قرأت من أفكار تتناسق معها .. أفكار أثَّرت فى نفسى كثيراً حينما قرأتها . .

إنها أفكار طائفة من (أعلام الفكر) لم يستعبدها (الإلْف الذهنى) ، ولا (العادات الفكرية) فيما يتعلق بمسألة (الإلحاد والكفر).

إن خط (الإلف والعادة) فى هذا الموضوع هو أن يذكر المؤمنون الأدلة على وجود اللَّه التى ترجع إلى دلالة الأثر على المؤثِّر ، وهى دلالة قوية ، فيحاول (الملحدون) متعسِّفين الردَّ عليها.

كلاَّ أيها المؤمنون : إن المسألة (أقدس) من أن توضع هذا الوضع، و(أوضح) من أن تحتاج إلى (برهان) .

يقول الإمام العالم الحجة ابن عطاء الله - رضى اللَّه عنه - :

---

(١) سورة النحل : ٥٣.

(٢) سورة النحل : ١٨ .

«إذا كان الكائن (من الكائنات) من هو غنيٌّ بوضوحه عن إقامة دليل (فالمكوَّن) أَوْلَى بغناه عن الدليل منها» .

ويقول :

« إلهى ، كيف يُستدلُّ عليك بما هو فى وجوده مُفتقِرٌ إليك ؟!

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المُظهِرَ لك؟!

متى غِبْتَ حتى تحتاج إلى دليل يدلُّ عليك ؟!

ومتى بَعُدْتَ حتى تكون الآثار هى التى تُوصِّل إليك ؟!

كيف يُتَصَوَّرُ أن يحجبه شىء ، وهو الذى أظهر كل شىء ؟!

كيف يُتَصَوَّرُ أن يحجبه شىء ، وهو الظاهر قبل وجود كل شىء؟!

كيف يُتَصَوَّرُ أن يحجبه شىء ، وهو أَظْهَرُ من كل شىء ؟!

كيف يُتَصَوَّرُ أن يحجبه شىء ، وهو أقرب إليك من كل شىء؟!

كيف يُتَصَوَّرُ أن يحجبه شىء ، ولولاه ما كان وجود شىء ؟!

شَتَّان بين من يَستدِلُّ به أو يَستدِلُّ عليه .

المستدِلُّ به عَرَفَ الحق (لأصله) ؛ فأثبت الأمر من (وجود أصله) .

و(الاستدلال عليه) من (عدم الوصول إليه) .

وإلا (فمتى غاب) حتى يُستدلَّ عليه ؟!

(ومتى بَعُدَ) حتى تكون الآثار هى التى تُوصِّل إليه ؟! » .

ويقول الإمام أبو الحسن الشاذلى ـ رضى الله عنه ـ :

« ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصِّلة إليه ..

فليت شعرى هل لها وجود معه حتى تُوصِّل إليه ؟!..

أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هى المُظهِرة له؟!» .

ويقول :

«كيف يُعْرَفُ (بالمعارف) من به (عُرِفَتِ المعارف) ؟! ..

أم كيف يُعرف بشيء مَنْ سَبَقَ وجوده وجود كل شيء ؟!».

ويقول أيضاً :

« إنا لننظر إلى الله ببصائر الإيمان ..

فأغناها ذلك عن الدليل والبرهان » .

ويقول ـ رضى اللَّه عنه ـ :

« وأرباب الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان ..

لأن أهل الشهود والعيان قدَّسوا الحق فى ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل عليه .. وكيف (يحتاج إلى الدليل) مَنْ (نَصَبَ الدليل)؟!

..وكيف يكون (معروفاً به) وهو (المعروف له) ؟!» .

إن (محاولة) الاستدلال على وجود الله (محاولة خاطئة) .. والسير على النحو الموجود الآن من الجدل فى هذا الموضوع (سير منحرف عن الطريق الصواب) ..

- كيف نشأ هذا الخطأ ؟

- ومتى بدأ هذا الانحراف فى الجو الإسلامى ؟

* * *

بدأ رسول اللَّه ﷺ يبشِّر بالتوحيد ، ويدعو إلى إسلام الوجه لله سبحانه فى كل ما أتى به رسوله ﷺ ..

بل لقد حارب ﷺ من أجل التوحيد :

«أُمِرْتُ أن أُقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم مِنِّى ماله ونفسه إلا بحقه وحِسَابُهُ على الله » .

ومضت السنون والأيام .. ورسول اللَّه ﷺ ماضٍ فى رسالته «لا إله إلا اللَّه» و (لا يحيد عن ذلك) و (لا يتنازل).

وكان خصومه يقولون - فى سذاجة وبلاهة - :

﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[1] .

ولكنه ﷺ لم يتحدث - مستدلاً أو مبرهناً - عن إثبات وجود الله .

ولم يسأله أحد من الصحابة - سواء أكان من أصل عربى ، أم من أصل غير عربى - عن إثبات وجود الله .

مضى على ذلك (العهد المكّىّ) ، ومضى على ذلك (العهد المدنىّ) برغم ما كان يزخر به من رجال من مختلف البيئات .

أما القرآن فإنه استفاض فى (إثبات التوحيد) استفاضة كثيرة، وكان (إثبات التوحيد) هدفاً من الأهداف الكبرى للقرآن .

كان القرآن يوجّه الإنسان إلى (التوحيد فى العقيدة) و (التوحيد فى العبادة) و(التوحيد فى الاستعانة) . ولكنه لم يجعل (إثبات الإلهية) هدفاً من أهدافه .

وإننى لأعلم أننا (أَلِفنا) أن نقول : إن القرآن يثبت وجود الله عن (طريق دليل العناية) ، أو عن (طريق دليل الخَلْق) ، أو عن (طريق دليل الأثر والمؤثر) ، ونذكر على ذلك الاستشهاد من القرآن الكريم..

وفى القرآن من الآيات التى تتحدث عن العناية ، والتى تتحدث عن الخَلْق : الشىء الكثير .

ولكن القرآن الكريم - وهذا (ما يَعْزُبُ) عن بعض الأذهان - لم يأتِ بذلك (مستدلاً ولا مبرهناً) .. وإنما أتى بها (متحدثاً عن نعم الله الكثيرة) التى يُفيضها على الإنسان . . ومتحدثاً عن (قدرة الله وعظمته) وعن أنه منعم رحيم ودود ، وقاهر غلاَّب (لا يقف أمام قدرته عقبة) و (لا يسدُّ أبواب رحمته معترض) .

---

(١) سورة ص: ٥ .

إن الآيات القرآنية من هذا النوع إنما تتحدث عن صفات الله فى جلالها وفى جمالها ، ولم تأتِ قَطُّ (مبرهنة على الإثبات) أو (رادة على مُنكِر) .

وسار رسول الله ﷺ متناسقاً مع الجو القرآنى .

وارتفع القرآن (بالعقيدة الإلهية) إلى (جو القداسة النقىّ) .

ولقد كان رسول الله ﷺ حريصاً الحرص كله على أن (يستقيم المسلمون على القرآن كما أُنزل) ..

وأن تكون المبادئ القرآنية وحدها هى التى يصدر عنها المسلمون فى عقائدهم وسلوكهم .

وفى (عهد أبى بكر - رضى الله عنه -) سار المسلمون على ما كانوا عليه فى عهد الرسول ﷺ (مرتفعين بعقيدة الإلهية) إلى المكان الأقدس فلا يمارون فى وجود الله ، ولا يضعون وجوده سبحانه فى مجال الإثبات والإنكار والأخذ والرد ..

وكذلك سار الأمر فى (عهد عمر - رضى اللَّه عنه -) ومن بعده حتى وصل الزمن إلى عهد المأمون ، وهو العهد الذهبى للأمة الإسلامية .

وقل فى المأمون مدحاً ما شئت ..

ولكن المأمون له - من غير شك - سيئتان من كبريات السَّيئات:

الأولى منهما: أنه دخل فى الخلاف الذى كان بين علماء المسلمين ـ الخلاف الكلامى ـ دخول المُنكِّل بطائفةٍ المُنتصِر للأخرى ..

ودخل بقوة الجيش والشرطة والمال ..

لقد دخل دخول رغبة ورهبة ..

وما كان له أن يفعل ذلك وهو الحاكم والراعى .

ودخول الحاكم بين طوائف رعيته إنما يكون دخول الأب بين أبنائه ، مُهدِّئاً ، مُصلِحاً مُوفِّقاً ..

أو دخول الأخ الأكبر بين إخوته.

لم يفعل المأمون ذلك ، وإنما نكَّلَ بطائفة لحساب أخرى ، ونكَّلَ فيمن نكَّلَ بالإمام أحمد بن حنبل الذى وقف موقفاً كريماً على نفسه وعلى الأمة..

وقف كالجبال الراسية لا يرضى بما يراه الحق بديلاً ..

لم يتملَّق ولم يداهن وإنما أعلن رأيه فى صراحة وفى وضوح ..

ونكَّلَ به المأمون ، وتحمَّل الإمام فى سبيل عقيدته ما يتحمل المخلصون .

أما السيئة الثانية من سيئات المأمون : فهى أمره بترجمة كتب العقائد والأخلاق اليونانية .

ولقد كان المسلمون يترجمون الكتب قبل المأمون ، كانوا يترجمون كتب الطبيعة والفلك والأحياء وغيرها من العلوم فى مجال الكون المادى . ولكنهم كانوا يرون أنه إذا كانت عقائد الأمم الأخرى صحيحة ؛ فعندنا ما هو أصحُّ منها بالأسلوب الإلهى ، وإذا كانت باطلة فنحن فى غِنًى عن الباطل . إن العقيدة الإسلامية مصدرها القرآن ، والقرآن كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

- فكيف يتأتى لقوم أن يتركوا هذا ليقرءوا العقيدة فى كتب بشر تخطئ وتصيب !! .

وكان موقف المسلمين - إذ ذاك - بالنسبة للأخلاق والتشريع هو موقفهم بالنسبة للعقيدة .

وضرب المأمون بذلك عرض الحائط ، ودخلت هذه الترجمات فى العقائد والأخلاق إلى الجو الإسلامى على استحياء . ولكنها بالإلْف والتكرار والعادة أخذت وضعها قراءةً ودرساً ومناقشةً وجدلاً ، وكان فيها مسألة إثبات وجود الله التى نشأت فى الجو الوثنى اليونانى .

ونشأت لظروف خاصة بهذا الجو اليونانى الذى تعارض فيه الدين الوثنى مع منطق العقل العبقرى ؛ وكانت النتيجة أن التزم عباقرة اليونان العقل فى

العقائد والأخلاق وأخضعوا - كل مسألة عَقَدِيَّة أو أخلاقيَّة - للعقل .

ولما فعلوا ذلك اختلفوا اختلافاً بيِّناً ..وأصبحت كل مسألة صغيرة أو كبيرة موضع اختلاف بين هؤلاء العباقرة، لا يصلون فيها إلى رأى واحد ؛ ولا يصلون بالتالى إلى اتفاق .

وكل من قرأ التاريخ الفلسفى يعرف أن كل من يسير فى مسائل العقائد والأخلاق على المنهج اليونانى يصل إلى نفس النتيجة : الاختلاف ، والتعارض فى الرأى ، وعدم الوصول إلى نتيجة يقينية.

وإذا نظرت إلى كثير من أضاليل الفكر : فستجد مصدرها النهج اليونانى .

إن الأدب المكشوف نبتت جذوره فى اليونان ..

وإن المسرح الفاجر الذى أُسِّسَ على الأدب المكشوف نبتت جذوره فى اليونان ..

وإن التماثيل العارية - سافرة فاضحة - إنما مَرَدُّها إلى اليونان ..

وكل ذلك يرجع إلى بدعة فكرية يونانية هى : «الفن للفن والأدب للأدب».

وبدعة أخرى مردُّها إلى اليونان أيضاً هى : « العلم للعلم » .

وما كان كل ذلك فى الحضارات الأخرى ..

لقد كان الأدب والفن والعلم - فى الحضارات الأخرى - يسير فى خدمة الفضيلة .. والإنسانية .. والسمو الروحى .

فلما نشأت الحضارة اليونانية نزلت بالقيم والمعايير إلى المستوى البشرى فى نقصه وتخبُّطه ، ولم تحاول قَطُّ السموَّ الإنسانى إلى الآفاق العليا التى أحبها الله وأنزلها على لسان رسله .

ونزلت الحضارة اليونانية بالعقائد أيضاً إلى المستوى البشرى فى نقصه وتخبُّطه.

وجعلت من مسألة وجود اللَّه مسألة قابلة للأخذ والرد والإنكار والإثبات ، وتُرجمت هذه الفلسفة بأمر المأمون .

وأخذ الناس شيئاً فشيئاً يألفون البدعة - بدعة الجدل البشرى - بما فيه من نقص وتخبُّط .

لم يتفق عباقرة اليونان على رأى ، ولم يستقروا على أمر فى عالم الفكر .

وإذا جمعت آراءهم بأكملها لم تجدها إلا مجموعة من التناقضات المتعارضة المضطربة التى لا يتميز فيها الحق من الباطل، ولا سبيلَ « عقليًّا » لتمييز حقها من باطلها .

لأن المقياس العقلى للتمييز بين الحق والباطل - فى عالم العقليات - لم يوجد ولن يوجد : ولم يخترعه أرسطو ، ولم يبتدعه ديكارت .

إنك حينما تكون بصدد التراث اليونانى الفكرى تكون بصدد ركام مركوم لا تعرف - «عقليًّا» أو «منطقيًّا» - حقه من باطله .

أَمَرَ المأمون بترجمة هذا التراث ودراسته والعناية به ، ولاكته الألسن وسمعته الآذان ، و «تداولته الأيدى» ، و « عكفت عليه الأذهان » و «تبنَّته بعض العقول» فأخذت مسألة إثبات الإلهية تبدو شيئاً فشيئاً وكأنها طبيعية .

والملاحدة فى كل عصر يسرُّهم أن تأخذ مسألة إثبات الإلهية هذا الوضع .

وما دام (الإثبات) مشروعاً ؛ فإن (الرَّدَّ) مشروع ..

إنه يسرُّهم أن ينزل المؤرخون بهذه المسألة عن جو القداسة ؛ لينزلوا بها هم إلى جو الإنكار ..

وكان لهم ما أرادوا .. وأصبحت المسألة مجالاً للجدل .

وما من شك فى أن لكل أمة مقدَّسات ..

وإن من أقدس مقدَّسات الأمة الإسلامية « عقيدتها » ..

فلنرجعْ بها إلى جو الفطرة الطاهرة والشعور الصافى والبداهة الواضحة ..

وإذا « شَذَّ » عن ذلك « شَاذٌّ » ؛ فَلْيَكُنْ فى « القانون » ما يمكِّن « القضاء » من «ردعه» ؟

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة آل عمران : ١٠١.